

طريق النجاة

أيها القارئ الكريم:

عندما يضعف الإيمان في نفوس الناس يضطرب ميزان التفاضل بينهم، فيتفاضلون بالزينة والمتاع، ويتفاوتون بالأنساب والألقاب، وعندئذ يقع التنافس المسعور، وتكون المغالبة والمكاثرة. يُفتن الناس بما في أيديهم وينسون غدهم.

إذا بعدت النفس عن حقيقة الإيمان ساقها الهوى إلى الضلال. فتغيرت نظراتها إلى الأشياء فأثرت الفاني ورغبت عن الحق. فبعدت عن موطن العز، وانتهت إلى المهانة والذل.

والحق لا يَرُغِبُ عَنْهُ أَحَدٌ إِلَّا ذَلٌّ، ولا يعتصم به أَحَدٌ إِلَّا عَزٌّ.

وما نزله الله على نبيه هو الحق. والناس مطالبون أن يخضعوا نفوسهم له، ويزنوا أمورهم به **فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴿١٠٦﴾^(١)

إن خضوع النفس للحق عزٌّ لها، وفوزٌ تُحقق به نصراً على أعدائها. قال ابن الخطاب لسعد بن أبي وقاص وقد ولاه حرب العراق: «إني قد وليتك حربَ العراق، فاحفظ وصيّي، فإنك تُقدِّمُ على أمرٍ كربه شديد، لا يُخلِّصُ منه إلا الحقُّ، فعوِّد نفسك ومن معك الخير، واستفتح به، واعلم أن لكل عادةً عتاداً، فعتادُ الخير الصبرُ،

(١) النساء: ٦٥.

فَالصَّبْرَ الصَّيْرَ عَلَى مَا أَصَابَكَ أَوْ نَابَكَ، يَجْتَمِعُ لَكَ خَشْيَةُ اللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ خَشْيَةَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ فِي أَمْرَيْنِ فِي طَاعَتِهِ وَفِي اجْتِنَابِ مَعْصِيَتِهِ، وَإِنَّمَا أَطَاعَهُ مَنْ أَطَاعَهُ بَعْضُ الدُّنْيَا وَحُبُّ الْآخِرَةِ، وَعَصَاهُ مَنْ عَصَاهُ بِحُبِّ الدُّنْيَا وَبَغْضِ الْآخِرَةِ.

وَلِلْقُلُوبِ حَقَائِقُ يُنْشِئُهَا اللَّهُ إِنْشَاءً، مِنْهَا السِّرُّ وَمِنْهَا الْعَلَانِيَةُ، فَأَمَّا الْعَلَانِيَةُ فَأَنْ يَكُونَ حَامِدُهُ وَذَامُهُ فِي الْحَقِّ سَوَاءً، وَأَمَّا السِّرُّ فَيُعْرِفُ بِظُهُورِ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ وَلِسَانِهِ وَبِمَحَبَّةِ النَّاسِ، فَلَا تَزْهَدُ فِي التَّحَبُّبِ. فَإِنَّ النَّبِيَّ قَدْ سَأَلُوا مُحِبَّتَهُمْ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا حَبَّهِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا بَغْضَهُ، فَاعْتَبِرْ مِثْلَتَكَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى بِمِثْلَتِكَ عِنْدَ النَّاسِ مِمَّنْ يَشْرَعُ مَعَكَ فِي أَمْرِكَ)).

تأمل هذه الكلمات النيرة تعرف الطريق. طريق الحق الذي سلكه هؤلاء الأطهار. فغزوا وانتصروا. وكانوا سادة الدنيا وقادتها، والواقفين على ذروة المجد فيها. واعلم أن خشية الله تجتمع في أمرين: في طاعته، وفي اجتناب مَعْصِيَتِهِ، وَإِنَّمَا أَطَاعَهُ مَنْ أَطَاعَهُ بِبَعْضِ الدُّنْيَا وَحُبِّ الْآخِرَةِ، وَعَصَاهُ مَنْ عَصَاهُ بِحُبِّ الدُّنْيَا وَبَغْضِ الْآخِرَةِ.

إن طريق الخشية هو طريق النجاة، والمؤمن حر كريمة، يخشى الله وهو يعلم أنه الرحمن. فخشيته تأتي من طريق الاعتراف بفضل الله والحياء منه. فهو يعمل على مرضاته، ويخشى أن يقع منه ما يُغضب الله؛ لأنه يعرف فضله ورحمته ﴿وَأُزْلِفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿هُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾^(١)

(١) ق: ٣١ - ٣٥.

طريقُ الخشية هو طريقُ الفوز والنجاة. وخشية الله تجتمع في أمرين: في طاعة أمره وفي اجتناب معاصيه.

ولا تتحقق الطاعة والنفس أسيرةً لمتاع، ذليلةً لضياح، مفتونةً بزهرة الحياة. لا بُدَّ أن تتجاوز هذا الخطام. وأن تنفذ بعين الاعتبار إلى ما هو خيرٌ وأبقى. لا بُدَّ أن تحدد موقفها وعلاقتها بالدنيا. أهى علاقةٌ مقيم أم مسافر؟ أهى دار ابتلاء واختبار أم دارُ نعيم وخلود؟

إن بُغِضَ الدنيا يُحَقِّقُ إخضاعَها للخير والحق، وجبَّها معناه أن تسيطر على قلب الإنسان فتقفُ النفس عند متاعها ولا تزيد ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ (١)

وإنما أطاعه من أطاعه يبغض الدنيا وحب الآخرة.

إن امرأة فرعون كانت بين طلاب الدنيا وعُشَّاقِهَا، لكنها استعلت على عرض الحياة. عاشت فيه ولم تخضع النفس له، تبرات من فرعون وقومه وهي تعيش معهم مُبَغِضَةً لما يُحِبُّون، راغبةً فيما يكرهون. دعت ربَّها أن يبني لها بيتاً في الجنة، وأن ينجيها من فرعون وعمله.

إن النفس قد علت بإيمانها فلم تفتنَّها زهرة الحياة، واعتصمت بيقينها فلم تركزن إلى المؤثرات من حولها، فكانت مثلاً في طاعة الله يُضْرَبُ للمؤمنين ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي

(١) الشورى : ٢٠.

عِنْدَكَ بَيِّنَاتٌ فِي الْجَنَّةِ وَنَجَّيْنَا مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ ﴿١٢﴾

أخي المسلم:

إن الله قد أحلَّ لنا الطيبات، وحرَّم علينا الخبائث. والنفسُ إن خضعت لهواها
اشتتت ما ليس لها، فوقعت في المحرمات، وإن قنعت بما أحلَّ الله لها طاب سعيها
وسلمت عاقبتها.

ومن العبث أن يقف الإنسان عند مرحلة من مراحل سيره، وينسى ما هو
مقبل عليه من ساعة حساب ويوم جزاء ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا
عَمِلُوا﴾ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٣﴾

والدنيا - التي يحرص الناس عليها - لا يستقيم أمرها إذا وقف الناس عندها
وركنوا إليها واطمأنوا لها. إن سعي الآخرة هو الذي يصحح أمرها. والإيمان بيوم
الحساب والجزاء هو الذي يحقق لها أسباب الطمأنينة والأمن.

ففي ظل هذا الإيمان تجدد الخضوع للخالق والاعتراف بفضله، فتجدد البر
الصادق بعباده في سحاء لا من فيه ولا أذى.

فتمضي النعمة في طريقها الفطري خاضعة للقيم، خاشعة في محراب الحق. لا
تتغير معها النفوس بين إقبال وإدبار. بل تتحول هي بفعل النفوس البارة إلى بر، وبعمل
القلوب المجاهدة إلى سلاح يردع البغي ويدفع الظلم.

(١) التحريم : ١١ .

(٢) المجادلة : ٦ .

تأبى النعمة مع النفوس المؤمنة إلا أن تتحول إلى معنى التواضع، والعدل، والبر، والرحمة، والجهد، والذل، والتضحية، وتلك صفات النفس المطمئنة بإيمانها الثابتة بيقينها النفسي التي تُقبل عليها النعمة، فتأبى إلا أن تتخلق، وتخضع لصفات النفس، وتمشي في ركاها تحقق شكر الخالق في البر بالمنخلق.

وتطويع النعمة للفضائل والأخلاق أمرٌ لا يقوم إلا بإيمان صادق بيوم الحساب والجزاء ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾^(١)

إذ يدرك مع هذا اليقين أنه مع خيره في خيرٍ أبداً ومن شره في شر. فيتحقق الاعتدال الذي تنشده الدنيا فلا تجده إلا عند نفوس لا يُطغيها الغنى ولا يُذلها الفقر؛ لأنها عزيزة بما لديها من الحق الثابت، غنية بما في نفسها من رضى بالله الغني الحميد. لا بُدَّ لكل عارض من خلق يحكمه، وإلا دُمِّر الإنسان بظروف الحياة المتباينة وأحوالها المتغيرة. والإيمان بالحساب والجزاء هو الذي يضع في كلِّ شئ خلقه، هو الذي يحقق في المصيبة خلق الصبر، وفي النعمة خلق الشكر، وفي الصحبة خلق الوفاء، وفي الجهاد خلق العدل، وفي النصر خلق التواضع، وفي المقدرة خلق العفو، إنه يمنح الدنيا رشدًا وخلقها، ويُمسك بزمام الإنسان راشداً في الدنيا موصولاً بالآخرة، وعندئذ يجد الإنسان في كل عارض عنصر النجاح.

والرسول ﷺ يَعْجَبُ من أمر المؤمن وهو يظفر من كل شئ بخير ما فيه. وخير ما في النعمة شكرها، وخير ما في الضراء الصبر عليها. فيقول: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ. إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ - وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ - إِنَّ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ

(١) آل عمران : من الآية ٣٠.

خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» ^(١)

أخي المسلم:

كُنْ حَكِيمًا فِي تَدْبِيرِ أَمْرِكَ، وَضِعْ كُلَّ شَيْءٍ فِي مَوْضِعِهِ فَلَا تَرْكُنْ إِلَى الدُّنْيَا عَلَى أَنَّهَا دَارُ خُلُودٍ وَبَقَاءٍ، وَلَا تَنْسِ الْآخِرَةَ وَأَنْتَ فِي كُلِّ يَوْمٍ تَقْتَرِبُ مِنْهَا، بَلْ عَامِلِ الدُّنْيَا عَلَى قَدَرِ إِقَامَتِكَ فِيهَا، وَاعْمَلْ لِلْآخِرَةِ مَدْرَكًا خَطَرَهَا وَأَثَرَهَا لِتُؤْتِيَ الْحِكْمَةَ ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا^(٢)﴾



(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

(٢) الْبَقَرَةُ : مِنْ آيَةِ ٢٦٦.